الترب والمدافن الخاصة في الاسلام

اعتنى الانسان منذ آلاف السنين بالقبور والمدافن والبناء عليها ، خصوصاً مدافن الملوك والعظماء ، فأهرام مصر ومدافن الحثيين والآراميين والانباط والرومانيين لا تزال حتى اليوم ماثلة امامنا ، وما تزال الحفريات العلمية تكشف لنا بين آونة واخرى عن قبور ومدافن قديمة كانت مجهولة لدينا

جاء الاسلام فلم يعتن بالقبور والمدافن والبناء عليها ، وكان رأيه فيها « خير القبور الدوارس »

وامتزج الاسلام بعد ذلك بكثير من الشعوب ، ودخل كثير من ابناء هذه الشعوب في الاسلام ، فكان ان اصبح على قبور عظماء المسلمين من ملوك وامراء وعلماء واعيان مصانع شاهقة ذات قباب فنية رائعة عرفت بعد ذلك باسم الترب « جمع تربة »

والذي يترجح لدي ان هذا الطراز من البناء اخذ عن اصل فارسي ، فقد كان بظاهر الكوفة قريباً من قبر الامام علي بن ابي طالب قبتان جميلتان تحت كل قبة قبر نسج المؤرخون حولها قصة [1] فقالوا ان الذي بناهما هو المنذر بن امرئ القيس بناهما على قبري نديميه اللذين امر بقتلهما وهو سكران ، فلما أصبح وأخبر بالذي أمضاه ندم على قتلهما وبنى عليهما طربالين ، وجعل لهما في السنة يوم بؤس ، ويوم نعيم حزناً عليهما ، وكان هذان الطربالان يلطخان بدم من يقتل يوم البؤس فلذلك لقبا بالغريين [2] ايضاً لما يلطخ بهما من دماء

ومهما يكن من امر بناء هاتين القبتين فهما من العصر والطراز الفارسي ، وقد بقيتا الى العصر العباسي في النجف قرب قبر علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، فلما مر الخليفة العباسي هارون الرشيد من ذلك الموضع وأخبر ان هنالك قبر الامام

---

(١) معجم البلدان لياقوت طبع مصر ج ٣ ص ١٨٣ و ٨٤ وفيه أساطير طويلة تدور حول هاتين القبتين . (٢) الغريان تثنية الغري وهو المطلي بالغراء ، ولعل القبتين كانتا مطليتين بمادة تشبه الغراء أو نحوه فلما نسجت حولهما هذه القصة زعم ان هذا الطلاء هو دم من يقتل يوم البؤس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

علي امر ببناء قبة على قبره وكان ذلك بعد سنة (١٧٠) هجرية . ويقول الحسن ابن محمد الديلمي : امر هارون الرشيد ان يبنى عليه قبة بأربعة ابواب فبنيت ، وذكر ابن طحال ان الرشيد امر ان تبنى عليه قبة فبنيت من لبن احمر وطرح على رأسها جرة خضراء وهي في الخزانة اليوم [١] .

لا ريب ان قبة قبر الامام علي هي اول قبة من نوعها في الاسلام ما دام لا يوجد لدينا نص يدل على ما هو اقدم منها ، ووجود الطربالين او الغربين قريباً منها يجعلنا نحكم بأن قبة الامام تأثرت بهما الى حد ما .

والظاهر ان مثل هذه القبة وضعت بعد فترة من الزمن على باقي قبور الأئمة من اهل البيت النبوي ، ثم شاع استعمالها في انحاء البلاد الاسلامية ، وتردد ذكرها كثيراً في كتب الطبقات والتراجم باسم التربة .

وقد عقد المقريزي في خططه بحثاً خاصاً بترب مصر [٢] كما فعل مثل ذلك النعيمي والعلموي [٣] والبقاعي في ترب دمشق [٤] ، ومحمد بن طولون في ترب صالحية دمشق [٥] .

معنى التربة والطربال

واذا طلبنا معنى التربة في كتب اللغة نجد صاحب المصباح يفسر التربة بالمقبرة مع ان التربة التي ترد في كتب التاريخ والتراجم والخطط لا يراد بها المقبرة او القبر وان كان في التربة شيء من معناهما ولكن يراد بها تلك القبب الفخمة التي تكون على قبور العظماء من ملوك وامراء وعلماء واعيان

(١) أعيان الشيعة ج ٣ ص ٥٨٧ (٢) ج ٤ ص ٣٤٨ و ٤٩ طبعة المليجي .

(٣) النعيمي هو عبد القادر النعيمي الشافعي ذكره في كتابه تنبيه الطالب وارشاد الدارس (مخطوط) ومنه نسخة في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وبالخزانة التيمورية بمصر في دار الكتب المصرية ، والعلموي هو عبد الباسط بن موسى العلموي اختصر كتاب تنبيه الطالب وزاد عليه في بعض المواضع (مخطوط) ومنه نسخة عندي وبالمجمع العلمي العربي بدمشق وبالتيمورية بمصر .

(٤) البقاعي هو احمد بن احمد بن علي البقاعي الحنفي اختصر كتاب التنبية أيضاً ومنه نسخة عند السيد احمد عبيد بدمشق . (٥) له كتاب أسماء القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية . ومنه نسخة فوطغرافية في المجمع العلمي بدمشق وبالتيمورية بمصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والذي يترجح لدي ان لفظ التربة مأخوذ من الطربال الذي خفف بحذف آخره فصار طرباء وتداولته الالسن فظن بعد ذلك تربة للشبه القريب بين طربا وتربه في اللفظ والمعنى

واذ رجعنا الى معنى الطربال في كتب اللغة وجدناه هو المراد لما يقصده المؤرخون واصحاب الخطط من معنى التربة . ففي نهاية ابن الأثير : الطربال هو البناء المرتفع كالصومعة . وفي معجم البلدان لياقوت : الطربالان هما بنآن كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر علي بن ابي طالب رضي الله عنه . وحينما نرجع الى كتب اللغة نجدها اوضحت معنى الصومعة ايضاحاً كافياً . ففي القاموس : الصومعة بيت للنصارى لدقة في رأسه ، وفي اساس البلاغة : من المجاز قولهم للثريدة اذا رفع وسطها وحدد رأسه ودقق « الصومعة » . وفي المختار ثريدة مصمعة اذا دققت وحدد رأسها ، وصومعة النصارى من هذا لأنها دقيقة الرأس

وفي مقبرة بغداد قبة من رائع الفن العراقي ينطبق وصف الطربال عليها تمام الانطباق وهذه صورتها

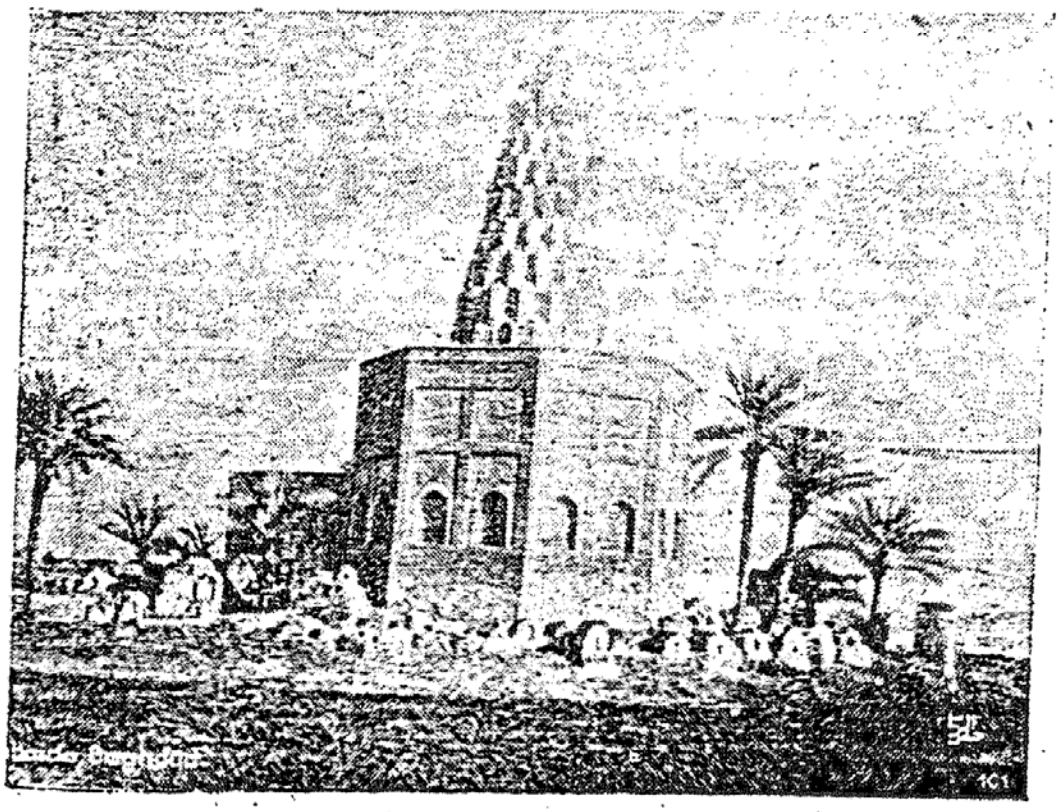

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنذ منتصف القرن الخامس الهجري اخذت التربة ترتدي ثوباً علمياً وتنطبع بطابع ثقافي فكان يضاف الى التربة مدرسة علم ، او مكتبة مطالعة ، او مكتب لتعليم الأيتام والاطفال ، او مسجد للصلاة يكون فيه درس علم او قراءة قرآن ، ففي سنة (٤٥٩) بنى شرف الملك محمد بن منصور الخوارزمي قبة[١] على قبر الامام ابي حنيفة والى جانبها مدرسة كبيرة للحنفية ولما تم بناؤها دعا اليهـا الفقهاء والعلماء والاعيان وأنشد الشريف البياضي الشاعر

الم تر ان العلم كان مبددا فجمعه هذا الموسد في اللحد
كذلك كانت هذه الارض ميتة فانشرها فعل العميد ابي سعد

والظاهر ان هذه المدرسة هي الأولى من نوعها حيث يقوم معهد علمي الى جانب قبر رجل عظيم تسمى المدرسة باسمه .

ومنذ هذا الوقت اخذت المعاهد العلمية تشاد الى جانب قبور العظماء ، وهذا ما دعا اصحاب كتب الخطط ومؤرخي مدارس العلم لجعل فصل خاص بالتربة لما لها من ناحية ثقافية .

جاء في ترجمة علي بن علي بن روزبهار بن باكير الكاتب البغدادي انه وقف كتبه بمشهد[٢]

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٨ و ١٩ المطبعة الأميرية ، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥

(٢) المشهد اسم مكان من الشهادة ، والشهيد هو من قتل في سبيل الله فكأن دمه المظلوم يشهد له بجهاده ، والذي يظهر لي ان هذه اللفظة استعملت أولا للبنايات التي شيدت على قبور أهل البيت ، وان أول ما أطلق منها على مشهد الحسين رضي الله عنه حيث دفن بالمكان الذي استشهد فيه ثم على قبر أبيه الامام علي رضي الله عنه ثم على بقية قبور الأئمة حيث أن أكثرهم مات قتلاً أو سماً ، ثم انتقل ذلك إلى أهل السنة فبنوا على قبور أئمتهم ومشاهيرهم مصانع دعيت بالمشاهد أيضاً كمشهد أبي حنيفة في بغداد ، ومشهد الرفاعي في أم عبيدة ، وتوسع رجال الشيعة وأهل السنة في هذا فكانوا يبنون مشاهد على غير قبور وينسبونها لاسم أحد المشاهير المتحقق دفنه ووفاته في بلدة أخرى ، فاذا سئلوا عنها أجابوا بأنهم شاهدوا صاحب هذا الاسم بالمنام في هذا المكان وانه طلب ذلك منهم . ونشأ في العهد الفاطمي نوع آخر من المشاهد له صبغته السياسية ، فكان الفاطميون إذا استولوا على الشام اظهروا قبوراً ومشاهد ونسبوها إلى أهل البيت ، وإذا استولى العباسيون أو السلجوقيون أظهروا قبوراً ومشاهد ونسبوها إلى بعض الصحابة ، ولذلك فكثير من قبور ومشاهد كلا الفريقين في الشام ومصر مشكوك فيها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

موسى بن جعفر [١] وشرط ان لا تعار [٢]

وفي ترجمة الوزير مجد الدين البهنسي المتوفى سنة (٦٢٨) انه جعل كتبه وقفاً بتربته بسفح قاسيون واجرى عليها اوقافاً جيدة [٣]

وانتشر في العصر الايوبي بناء المدارس الى جانب الترب انتشاراً عظيماً ففي سنة (٥٢٧) بنى صلاح الدين الايوبي تربة الامام الشافعي وانشأ المدرسة الصلاحية بجانبها ، وبنى مدرسة مجاورة للشهيد المنسوب للحسين بن علي [٤]

ولما توفي صلاح الدين الايوبي سنة (٥٨٩) دفن في قلعة دمشق حتى جاء ولده العزيز عثمان الى دمشق فبنى له تربة والى جانبها مدرسة هي من اعظم مدارس دمشق وقف لها وقفاً مليحاً ونقل اباه صلاح الدين اليها [٥]

ولما توفي الملك العادل اخو صلاح الدين سنة (٦١٥) دفن في قلعة دمشق أيضاً ، فبنى له ابنه الملك المعظم تربة ومدرسة دعيت باسمه ونقل اباه اليها [٦] ، والمدرسة المذكورة هي مقر المجمع العلمي العربي بدمشق .

هذه صورة مجملة عن تاريخ الترب الاسلامية وهي تختلف كل الاختلاف عن ترب ومدافن الامم القديمة الخاصة التي لم يقصد منها الا تخليد الذكر والفخار لأصحابها بخلاف المدافن الاسلامية الخاصة التي قصد منها خدمة العلم والثقافة مضافاً الى ذلك تخليد اسماء المشاهير من عظماء المسلمين .

دمشق : محمد أحمد دهمان

---

(١) هو الشهير بموسى الكاظم بن جعفر الصادق ويعد موسى ثامن الأئمة الاثناعشرية توفي في بغداد سنة (١٨٣) قيل إنه توفي مسموماً .

(٢) الوافي بالوفيات في المكتبة الأحمدية بالاستانة رقم المخطوط (٢٩٢٠) عن السيد يوسف العش . وللعلي بن علي بن رزوبهار ترجمة في الجزء التاسع من عنوان التواريخ لابن الساعي . نشره مصطفى جواد في بغداد عام ١٣٥٣ هـ .

(٣) تنبيه الطالب ، ومختصراه للعلموي والبقاعي .

(٤) تاريخ ابن خلكان ج ٢ ص ٥٣٢ المطبعة الأميرية والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤ و ٥٥ والتعليقات عليها . (٥) تنبيه الطالب ، ومختصراه للعلموي والبقاعي . (٦) المصدر نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net